دور الاجتماع على الإسلام والبيعة في بناء الأمة والدولة

وأثر العصبيات في دعمها أو هدمها

من خلال سنة النبي ﷺ وسيرة أصحابه رضوان الله عليهم

بحث مقدم لملتقى "الديني والسياسي في التجربة الإسلامية الأولى من خلال الدراسات المعاصرة"

قسم اللغة والحضارة الإسلامية

كلية العلوم الإسلامية

جامعة باتنة1

إعداد: الأستاذ الدكتور صالح عسكر

كلية العلوم الإسلامية–جامعة باتنة1

بسم الله الرحمن الرحيم

دور الاجتماع على الإسلام والبيعة في بناء الأمة والدولة

وأثر العصبيات في دعمها أو هدمها

من خلال سنة النبي ﷺ

وسيرة أصحابه رضوان الله عليهم

امتازت الرسالة الخاتمة التي جاء بها رسول الله مُحَمَّد ﷺ بتكامل العقيدة مع الشريعة وتداخل البعد الروحي فيها مع البعد الدنيوي، وتضافر الأحكام الفردية مع الشرائع المؤطرة للأمة، وضبط النظام وحفظ الوحدة والأمن من الأسرة إلى الدولة..وضمن هذا التصور، شرع الإسلام مبايعة من يقوم على رعاية مصالح الأمة وإقامة المصالح والفصل في النزاعات ورد المظالم وإقامة الحدود...، وجعله ممثلا للأمة ويدها ولسانها والعقل المدبر فيها، وأوجب طاعته في المعروف ومناصحته ومؤازرته وإعانته تحقيقا لتلك المصالح والأهداف والغايات، وجعلها فريضة شرعية دينية يطيع بها المسلمون ربهم بطاعة من بايعوه ولا يرون أنهم يطيعونه لشخصه، فلا يحسون فيها ذلا ولا نقصا، ولا يبالون فيها بحظ نفوسهم ما كانوا لله ولرسوله ﷺ مستجيبين.

ولئن كانت البيعة شيئا يؤدي إلى جمع المسلمين كجسد واحد ما رأوا في ذلك طاعة لله وكانوا مستجيبين لله ورسوله ﷺ، فإن الاطمئنان إلى تدين الناس وورعهم ووعيهم وحده غير كاف في ضمان الوحدة والاستقرار، خاصة عند فساد الناس وتوسع رقعة الإسلام واختلاط المؤمن بالمنافق والفاسق وكثرة أعداء

المسلمين وتنوع أساليب مكرهم وخداعهم وتربصهم الدائم بالأمة، مما يضيف إلى الأمر بعدا آخر متعلقا بفقه الواقع وحسن التدبير والقدرة على سياسة أمور الناس والدراية بطرق التعامل وأساليب المناورة.

من هذا المنطلق تحاول هذه الورقة أن ترصد هذا التداخل بين البعدين الديني والسياسي للبيعة ودورها في منع الشقاق والتنازع، وأثر تسلل العطب إليها في تشتت الأمة واستحلال الدماء والأموال والأعراض.

مفهوم البيعة وبعدها الديني

تطلق البيعة على معاهدة السلطان على الطاعة، ومدلولها اللغوي نفس مدلولها الشرعي، قال ابن خلدون:" اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمي بيعة مصدر باع وصارت البيعة مصافحة بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي ﷺ ليلة العقبة وعند الشجرة وحيثما ورد هذا اللفظ ومنه بيعة الخلفاء".[i]

وقد وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى أيضا، نحو قوله سبحانه:"
إِنَّالَّذِينَيُبايِعُونَكَإِنَّمايُبايِعُونَاللَّهَيَدُاللَّهِفَوْقَأَيْدِيهِمْفَمَنْنَكَثَفَإِنَّمايَنْكُثُعَلىنَفْسِهِوَمَنْأَوْفىبِماعاهَدَعَلَيْهُاللَّهَفَسَيُؤْتِيهِأَجْراً عَظِيماً (١٠)"[الفتح].

قال الراغب:"وبايع السلطان: إذا تضمن بذل الطاعة له بما رضخ له، ويقال لذلك: بيعة ومبايعة"[ii].

وطاعة أولي الأمر من المسلمين ممن يجتمع بهم أمر الأمة ويدفع التنازع وتصان الحقوق في المعروف واجبة بنص القرآن والسنة قال ابن تيمية:"...قاعدة مختصرة في وجوب طاعة الله ورسوله في كل حال، على كل أحد، وأن ما أمر الله به ورسوله من طاعة الله وولاة الأمور ومناصحتهم واجب وغير ذلك من الواجبات، قال الله تعالى:"إن
إِنَّاللَّهَيَأْمُرُكُمْأَنْتُؤَدُّواالْأَماناتِإِلىأَهْلِهاوَإِذاحَكَمْتُمْبَيْنَالنَّاسِأَنْتَحْكُمُوابِالْعَدْلِإِنَّاللَّهَنِعِمَّايَعِظُكُمْبِهِإِنَّاللَّهَكانَسَمِيعاًبَصِيراً (٥٨)"[النساء]، وقال تعالى:"
يَاأَيُّهَاالَّذِينَآمَنُواأَطِيعُوااللَّهَوَأَطِيعُواالرَّسُولَوَأُولِيالْأَمْرِمِنْكُمْفَإِنْتَنازَعْتُمْفِيشَيْءٍفَرُدُّوهُإِلَىاللَّهِوَالرَّسُولِإِنْكُنْتُمْتُؤْمِنُونَبِاللَّهِ

وَالْيَوْمِالْآخِرِذلِكَخَيْرٌوَأَحْسَنُتَأْوِيلاً (٥٩)"[النساء]، فأمر الله المؤمنين بطاعة الله وطاعة رسوله و أولي الأمر منهم، كما أمرهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول"[iii].

والبيعة تزيد عقد الطاعة توثيقا:"فما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم واجب على الإنسان وإن لم يعاهدهم عليه، كما يجب عليه الصلوات الخمس والزكاة والصيام وحج البيت، وغير ذلك مما أمر به اللهورسوله من الطاعة، فإذا حلف على ذلك كان ذلك توكيدا وتثبيتا لما أمر الله به ورسوله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم. فالحالف على هذه الأمور لا يحل له أن يفعل خلاف المحلوف عليه ... فإن ما أوجبه الله من طاعة ولاة الأمور ومناصحتهم واجب وإن لم يحلف عليه، فكيف إذا حلف عليه؟ وما نهى الله ورسوله عن معصيتهم وغشهم محرم وإن لم يحلف على ذلك"[iv].

وهذه الطاعة في حقيقتها طاعة لله ورسوله ﷺ وشاغل الوظيفة يطيع المسلمون فيه ربهم لا شخصه.. وعلى ذلك دلت نصوص القرآن والسنة .

الطاعة في المعروف والوفاء بالبيعة في القرآن والسنة:

من ذلك ما روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني). [v]

وقد نص الحديث صراحة على أن هذه الطاعة طاعة لله ورسوله ﷺ لا لشخص الأمير.

والغرض من هذه الطاعة تحقيق وحدة الأمة والجماعة كما ورد ذلك صريحا على لسان النبي ﷺ، فعن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: (من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت، إلا مات ميتة جاهلية). وفي الحديث بيان واضح لأن شق عصى الطاعة يؤدي إلى الخروج عن الجماعة التي يعد الأمير ممثلا لإرادتها ومديرا ومنسقا لأعمالها.

والذي يجمع الأمة ويوحدها هو ما تجتمع عليه دوما من طاعة الله ورسوله ﷺ والاعتصام بحبله، لذلك فطاعة الأمراء مرهونة بكونها في غير معصية ..عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله

عليه وسلم قال: (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)[vi].

وعن علي ﷺ قال: بعث النبي ﷺ سرية، وأمر عليهم رجلا من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب عليهم، وقال: أليس قد أمر النبي ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: قد عزمت عليكم لما جمعتم حطبا وأوقدتم نارا، ثم دخلتم فيها. فجمعوا حطبا، فأوقدوا، فلما هموا بالدخول، فقام ينظر بعضهم إلى بعض، قال بعضهم: إنما تبعنا النبي ﷺ فرارا من النار، أفندخلها؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار، وسكن غضبه، فذكر للنبي ﷺ فقال: (لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا، إنما الطاعة في المعروف)[vii].

وبناء على ما سبق، فإن البعد الديني في البيعة في الإسلام يتجلى في الولاء لله ورسوله ﷺ وإقامة شرائعه وحدوده ومعاهدة من يقود الأمة لتحقيق ذلك والاجتماع عليه ومناصرته ومناصحته وطاعته في المعروف واعتبار ذلك طاعة لله ولرسوله ﷺ واعتبار نقيضه معصية لله ولرسوله ﷺ.وهي لهذا المعنى واحدةمن التكاليف التي جاءت بها الشريعة واختبرت المسلمين بها. وقد خالف في ذلك الشيعة فجعلوا للأئمة منزلة يستمدونها من الله سبحانه وتعالى، وعدوها ركنا من أركان الإيمان، ولما لم يجدوا لها في القرآن سندا قالوا بأن القرآن محرف.

الإمامة عند الشيعة:

قال الشيعة : «إن الإمامة ليست من مصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبي إغفاله وعليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر، وأن عليا ﷺ، هو الذي عينه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه"[viii].

ولما عجز الشيعة عن إثبات عقائدهم من القرآن، حاولوا تأول ظواهره لحملها على عقيدتهم، ثم لم يكتفوا بذاك حتى قالوا بتحريف القرآن لعدم وجود نص صريح فيه على عقيدتهم، قال أحمد حسين الذهبي:"وأحسب أن الإمامية الإثني عشرية، عز عليهم أن يكون القرآن غير صحيح فى عقيدتهم بالنسبة للأئمة وموافقيهم، وبالنسبة لأعدائهم ومخالفيهم، وكأني بهم وقد تساءلوا فيما بينهم فقالوا : إذا كان القرآن جله واردا فى شأن الأئمة وشيعتهم، وفى شأن أعدائهم ومخالفيهم، فلم لم يأت القرآن بذلك صريحا مع أنه المقصود أولا بالذات؟ ولم اكتفى بالإشارة الباطنة فقط؟.. كأني بهم بعد هذا التساؤل، وبعد هذا

الاعتراض الذى أخذ بخناقهم، وراحوا يتلمسون للتخلص منه كل سبيل، فلم يجدوا أسهل من القول بتحريف القرآن وتبديله، فقالوا : إن القرآن الذى جمعه علي عليه السلام، وتوارثه الأئمة من بعده، هو القرآن الصحيح الذى لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، أما ما عداه فمحرف ومبدل، حذف منه كل ما ورد صريحا فى فضائل آل البيت، وكل ما ورد صريحا فى مثالب أعدائهم ومخالفيهم. وأخبار التحريف متواترة عند الشيعة، ولهم فى ذلك روايات كثيرة يروونها عن آل البيت، وهم منها براء"[ix].

هذا إجمالا عن البعد الديني للبيعة وما ينبني عليه من وحدة الأمة وجمع صفها. ولكن هل تكفي البيعة وحدها لحفظ وحدة الأمة وتماسكها؟

البيعة والقدرة على ضمان الولاء:

أولا: في سيرة النبي ﷺ:

نظريا، تصنع عقيدة الإسلام مسلما ملتزما وقافا عند حدود الله راعيا للمواثيق والعهود، خاصة إن تعلق الأمر بعقد خطير كعقد البيعة، إلا أن الواقع شيء آخر، خاصة عند فساد الناس وانتشار الجهل والأهواء بينهم وغلبة حظوظ النفس ووساوس شياطين الإنس والجن ومكائدهم. ومن جهة أخرى، فإن مؤثرات أخرى تتدخل أيضا في توثيق عرى هذه البيعة أو توهينها وكسرها وزرع بذور النزاع والشقاق. ولذلك كان النبي ﷺ أول من أعطى بتصرفاته الدرس والمثل في توثيق عقد البيعة والطاعة والقضاء على أسباب الفتنة والشقاق وإخمادها في المهد.

وإذا تأملنا سيرة النبي ﷺ وما وقع زمن الخلافة الراشدةوما حدث–بل وما يحدث في واقع الناس–، وجدنا أن أهم مؤثر في ولاء الناس للحاكم هو العصبية.لقد مثلت العصبية عاملا داعما لوحدة الأمم التي أحسنتاستغلالها كما مثلت أيضا عاملهدم للأمة والدولةحين تؤدي إلى ضرب فكرة الولاء للإسلام وللنبي عليه الصلاه والسلام ولماأمر به الله سبحانه وتعالى وشرعه. ومن هنا استغلها النبي ﷺكما حاول المنافقون وأعداء الأمة استغلالها.

توظيف النبي ﷺ للعصبية في ضمان الولاء والحماية:

كان النبي ﷺ في مكة في بداية دعوته في حماية بني هاشم قومه وقرابته الذين هابهم وخاف انتقامهم كل من فكرفي أن يصل إليه بسوء، فلما عزم على الخروج إلى المدينة، خرج في عهد قوم بايعوه على أن يحموه ويحموا دعوته وهم أهل الصدق والوفاء، وكان ذلك أمر حرص عمه العباس ﷺ على الاستيثاق منه في بيعة العقبة وهو يومئذ مشرك، وعبرت كلماته التي خاطب بها الأنصار عن ذلك صراحة.

روى ابن هشام في السيرة متحدثا عن بيعة العقبة:" فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج –قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها–: إن مُحَمَّدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له : قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت"[x].

وقد أخذ النبي ﷺ على الأنصار العهد على الحماية، وهو عهد توثقه العصبية، " قال: فتكلم رسول الله –ﷺ– فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغب في الإسلام، ثم قال: "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم". قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا١ فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرا عن كابر"[xi].

ومن الواضح أن النبي ﷺ كان في حماية عصبته وقومه وأقاربه من بني هاشم، وأنه لم يفارقهم إلا في عهد عصبة أخرى، وهذه العصبة كانت تجمعها رابطة القبيلة والقرابة، وكانوا يأتمرون بأمر كبرائهم وسادتهم، ودخول النبي ﷺ في عهدهم كدخول أي واحد منهم فيه رغم أنه لم يصبح بعد إمامهم وأميرهم وقائدهم، وهذا يكشف عن بعد آخر للبيعة وهي أنها وإن انعقدت للإمام فإنها في الحقيقة عهد لكل فرد في الأمة، وكل واحد من الجماعة داخل فيها لأنها تجعل الجماعة كلها حامية له.

ثم إن النبي ﷺ أصبح بعد أن هاجر إمام هذه الجماعة، وقد كانت مبايعتهم له العلاج الذي قضى على دهر طويل من التنازع والقتال والتنافس بين الأوس والخزرج، كانت وراءه العصبية والحمية. ومن هنا برز معطى جديد في البيعة التي تقيم جماعة المسلمين وأمتهم، وهي الولاء لله ورسوله ﷺ الذي يغلب الحمية والتعصب للقبيلة والطائفة.ولقد عظم الإسلام استبدال هذا الولاء بما كان عليه الناس في الجاهلية وحذر

منه وجعله من المنكرات والمعاصي والآثام العظيمة حتى كاد صاحبه يخرج من الإسلام وينخلع منه. ومن ذلك ما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ؛ أنه قال (من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل، فقتلة جاهلية. ومن خرج على أمتي، يضرب برها وفاجرها. ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه)[xii].

وقد بين النبي ﷺ في هذه الكلمات المعدودات جميع الأسباب التي تؤدي إلى وهن الأمة وتفرقها وانحلال روابط الولاء والنصرة فيها، وهي:

- الخروج على النظام العام الذي تمثله الطاعة في المعروف –كما تقدم:"من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية".
- استبدال الولاء لله ورسوله ﷺ بالولاء للعصبة، والخروج على جماعة المسلمين وعهدهم:"ومن قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل، فقتلة جاهلية".
- نشر الظلم وخيانة العهود والخروج على الأمة:"ومن خرج على أمتي، يضرب برها وفاجرها. ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه".

ومع ذلك فإن النبي ﷺ لم يذم هذه العصبية حين لا تعارض الحق ولا تقف في طريقه.

العصبية والولاء لله ورسوله ﷺ:

لم يلغ الإسلام العصبية، ولم يدر ظهره لها كفطرة إنسانية، ولم يحاول دفنها تحت رماد من الخداع لتشتعل عند أول نزاع، ولكنه هذبها وجعلها خادمة للولاء الأكبر (الولاء لله ورسوله ﷺ). ورغم أن الأنصار دخلوا في الإسلام، وأصبح النبي ﷺ أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم، وصارت أخوة الإسلام عندهم أعظم من أخوة النسب حتى كان أحدهم يقاسم أخاه المهاجر كل ما يملك [xiii]، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف يوم بدر عند بنود العهد الذي عاهدوه عليه ولم يتجاوزه إلا بموافقتهم ورضاهم، وكان "أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {اذهب

أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون}. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[xiv] لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا، ودعا له به"[xv].

ولكن النبي ﷺ كان يريد رأي الأنصار، وقد راعى العهد الذي أعطوه إياه كعصبة –على الرغم من إيمانهم به وشهادتهم بنبوته–، وهذا يوضح سنة النبي ﷺ في احترام العهود أولا، وعدم إلغائه للأنصار كعصبة من الناس ثانيا، قال ابن هشام:"ثم قال رسول الله ﷺ: "أشيروا علي أيها الناس" وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: "أجل": قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله"[xvi].

وما ذكر ابن هشام من أن رسول الله ﷺ كان "يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم" محل نظر، فقد كان عليه الصلاة والسلام يعرف أصحابه: المهاجرين منهم والأنصار، ويعرف محبتهم لله ورسوله واستعدادهم –بل استبشارهم– بالجهاد والشهادة في سبيل دينه، ويبدو أن استشارته لهم كانت مراعاة لهم كقوم وعصبة لها كلمتها وتؤدي الطاعة من باب القوة والقدرة والرضا، ومنزلتها في الإسلام منزلة معروفة محفوظة، وهو بعد فطري في كل إنسان وقوم يحبون أن تحفظ مكانتهم وتعرف منزلتهم ولو كانوا بالأصل طائعين لله ورسوله ﷺ.

وقد كان عليه الصلاة والسلام يراعي في معاملة أتباعه –مع ما يعلم منهم من صدق الإيمان والولاء– هذا البعد الفطري، ولأجله ترك معاقبة بعض المنافقين مع ثبوت جرمهم لأن قومهم قد يحسون بالإساءة

كما فعل مع ابن سلول في حادثة الإفك، وفي الحادثة التي نزلت فيها سورة المنافقونوهو شيء صرح به النبي ﷺ نفسه حين قال لعمر:"كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم أمرتني بقتله لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته"[xvii].

وفي المقابل، سعى المتربصون بهذه الأمة، وعلى رأسهم المنافقون لتمزيقها وإثارة الفتنة والشقاق بين أفرادها ومكوناتها، ولحكمة ما شاء الله سبحانه وتعالى ألا يسلم من ذلك عصر النبوة الذي وقعت فيه جملة من الحوادث خلد القرآن الكريم بعضها لتكون درسا يتلوه المسلمون إلى يوم القيامة، وليستفيدوا من سنة النبي ﷺ في التعامل مع مثل هذه الحوادث. وقد شملت هذه الحوادث محاولة إثارة الشقاق بين المهاجرين والأنصار تارة، وبين الأنصار أنفسهم تارة أخرى.

1-محاولة إثارة الشقاق بين المهاجرين والأنصار:

أشهر الأمثلة على ذلك، ما يتلوه المسلمون إلى يوم القيامة في القرآن من محاولة المنافقين تحويل قضية الإسلام كلهوسعي الأحزاب (قريش وغطفان وبني فزارة وبالتواطئ مع يهود بني قريظة) للقضاء عليه ومحوه، إلى مسألة قومية بين النبي ﷺ وقريش لا دخل لأهل المدينة فيها. قال تعالى:"وَإِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً(١٣)"[الأحزاب].

والآية تنص صراحة على إثارة فكرة القبيلة "يا أهل يثرب" كأن القوم يقولون: هؤلاء ليسوا منكم وحربهم ليست حربكم فخلوا بينهم وبين الناس.

ومن أشهر الأمثلة على ذلك أيضا تلك الواقعة التي نزلت فيها سورة المنافقون، وزعم ابن سلول فيها أنه سيخرج النبي ﷺ وأصحابه، ومحاولته إثارة الأنصار وتغوير صدورهم على إخوانهم المهاجرين،وقد بدأت الواقعة بحدث بسيط، ولكن المنافقين حاولوا استغلال شرارته لإشعال نار الفتنة بين المهاجرين والأنصار.

وقعت الحادثة عند رجوع النبي ﷺ من غزوة بني المصطلق، "فبينا الناس على .. الماء وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن سعيد يقود له فرسه، فازدحم جهجاه وسنان الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن

أرقم، غلام حديث السن، فقال: قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: "سمن كلبك يأكلك"، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؛ ثم أقبل على من حضر من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم"[xviii].

ويلاحظ أن ابن سلول حاول أن يستغل الحادث في إثارة العصبية عند الأنصار وأن يوغرصدورهم على إخوانهم المهاجرين، وكلماته تصور لهم هذا الحدث البسيط على أنه تغول من قوم آووهم وأحسنوا إليهم عليهم، وقد حان وقت رد الأمور إلى نصابها بإخراجهم من المدينة أذلة، وتذكيرهم بأن الأوس والخزرج هم الأعزة .

ومثل هذه الدعوة كانت ستلقى استجابة عند أي طائفة من الناس –وربما عند أهل المدينة أنفسهم قبل أن يستقر الإيمان في قلوبهم سنوات قبل ذلك–، ولكن هؤلاء الذين آووا ونصروا وأشربت قلوبهم محبة الله ورسوله ﷺ غلب إيمانهم عصبيتهم وحميتهم الجاهليةوسرعان ما وجد ابن سلول نفسه معزولا بينهم يحاول التبرأ مما قال وينكره، "فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من غزوه، فأخبر الخبر وعنده عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله مر به عباد بن بشر بن وقش فليقتله، فقال رسول الله ﷺ: "فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن مُحَمَّدا يقتل أصحابه، لا ولكن أذن بالرحيل"، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس، وقد مشى عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلمت به؛ وكان عبد الله بن أبي في قومه شريفا عظيما، فقال من حضر رسول الله ﷺ من أصحابه من الأنصار: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، حدبا على عبد الله بن أبي، ودفعا عنه"[xix].

ويلاحظ أن النبي ﷺ استعمل أسلوبا ذكيا وحنكة كبيرة في وأد الفتنة، فلم يسارع إلى معاقبة ابن سلول فيغضب له بعض قومه حمية (وفي ذلك مراعاة للحمية والعصبية الفطرية كما تقدم)، وأمر بالسير والارتحال حتى لا يترك للناس مجالا للأخذ والرد والجدال والتنازع والخصام وقد أتعبهم حتى إذا استراحوا ناموا ولم يجدوا لذلك مجالا، وبين هو نفسه عليه الصلاة والسلام ذلك لأسيد بن حضير: " فلما استقل رسول الله ﷺ وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه، ثم قال: يا رسول الله لقد

رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها، فقال رسول الله ﷺ:"أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ " قال: فأي صاحب يا رسول الله؟ قال: "عبد الله بن أبي"، قال: وما قال؟ قال: "زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل"؛ قال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز؛ ثم قال: يا رسول الله ارفق به، فو الله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا، ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض وقعوا نياما، وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي. ثم راح بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع، يقال له نقعاء؛ فلما راح رسول الله ﷺ هبت على الناس ريح شديدة آذتهم وتخوفوها، فقال رسول الله ﷺ: "لا تخافوا فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار"؛ فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بني قينقاع وكان من عظماء يهود، وكهفا للمنافقين قد مات ذلك اليوم، فنزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في عبد الله بن أبي بن سلول، ومن كان معه على مثل أمره، فقال: (إذا جاءك المنافقون) فلما نزلت هذه السورة أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد فقال: "هذا الذي أوفى الله بأذنه".

وبهذه الحنكة والحكمة تجنب النبي ﷺ إيقاد نار فتنة مبنية على العصبية، أو أن يلقى في نفوس بعض الأنصار شيء يكون شرارة لنار فتنة في المستقبل ولو بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، بل وجعل قوم ابن سلول أنفسهم هم من يردونه عن باطله ويسعون لمعاقبته وأولهم ابنه، فحين بلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي الذي كان من أبيه وكان على خلاف أبيه مؤمنا جاء إلى النبي ﷺ يعرض عليه أن يقوم هو بمعاقبته.عن عاصم بن عمر بن قتادة "أن عبد الله بن عبد الله بن أبي أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيره فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمنا بكافر، فأدخل النار؛ فقال رسول الله ﷺ: " بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا"، وجعل بعد ذلك اليوم إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويعنفونه ويتوعدونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك عنهم من شأنهم: "كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته

يوم أمرتني بقتله لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته"؛ قال: فقال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري"[xx].

2-إثارة الشقاق بين الأنصار أنفسهم:

و كان بين الأوس والخزرج قتال في الجاهلية، فلما أكرمهم الله بالإسلام وقدوم النبي ﷺ عليهم أصبحوا إخوة، ولكن أعداء الإسلام لم يكن ليرضيهم ذلك فسعوا إلى إثارة الضغائن التي ورثوها من الجاهلية للتحريش بينهم .. عن زيد بن أسلم، قال: مرّ شأسُ بن قيس –وكان شيخًا قد عَسَا في الجاهلية [أي كبر فيها] عظيمَ الكفر، شديد الضِّغن[البغض والحقد] على المسلمين، شديدَ الحسد لهم– على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه. فغاظه ما رأى من جَماعتهم وألفتهم وصَلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع مَلأ بني قَيْلة بهذه البلاد [أي رؤساء الأنصار وأشرافهم]. لا والله ما لنا معهم، إذا اجتمع ملأهم بها، من قرار"[xxi].

وهكذا قرر شأس بن قيس أن يسعى في تفريق جمعهم، وقام مخططه على إثارة العصبية الجاهلية وما كان بينهم من أحقاد وضغائن فيها، وطريق ذلك أن يذكرهم بما وقع بينهم فيها من الحروب والقتل:"فأمر فَتى شابًّا من يهود وكان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، وذَكّرهم يَوْم بعاث وما كان قبله، وأنشدْهم بعض ما كانوا تقاوَلوا فيه من الأشعار –وكان يوم بُعَاث يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفرُ فيه للأوس على الخزرج– ففعل. فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجُلان من الحيَّين على الرُّكَب: أوسُ بن قَيْظي –أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس –، وجبّار بن صخر –أحد بني سَلمة من الخزرج–، فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رَدَدْناها الآن جَذَعَةً [أي جددنا الحرب] وغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاحَ السلاحَ.. موعدُكم الظاهرة –والظاهرةُ: الحَرَّة–"[xxii].

ونجحت الخطة، فإذا العصبية تعيد الأنصار إلى الجاهلية، وإلى ما قبل أن يكرمهم الله بالإسلام وهجرة نبيه عليه الصلاة والسلام وأن أضحوا بعد العداوة إخوانا، "فخرجوا إليها. وتحاوز الناس [أي انحاز كل إلى ناحيته وجانبه] فانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية".

ولكن هؤلاء –على الرغم مما في نفوسهم من الميل إلى العصبة مما فطر عليه جميع الناس–، كانوا قد تربوا في مدرسة رسول الله ﷺ، وكان تذكيرهم بالله وموعظتهم ونصحهم كفيلا بإزالة الغشاوة عنهم:"فبلغَ ذلك رسولَ الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم، فقال:"يا معشرَ المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهُرِكم بعد إذْ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمرَ الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألَّف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا؟" فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيدٌ من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكَوْا، وعانقَ الرجال من الأوس والخزرج بعضُهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رَسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيدَ عدوِّ الله شَأس بن قيس وما صنع. فأنزل الله في شأس بن قيس وما صنع:"قل يا أهل الكتاب لم تكفرُون بآيات الله والله شهيدٌ على ما تعملون قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا"[آل عمران: 99]. وأنزل الله عز وجل في أوس بن قَيْظيّ وجبّار بن صخر ومَنْ كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا عما أدخل عليهم شأس بن قيس من أمر الجاهلية:"يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردُّوكم بعد إيمانكم كافرين" إلى قوله:"أولئك لهم عذابٌ عظيم"[آل عمران: 100]"[xxiii].

وإننا إذا تأملنا تصرفات النبي ﷺ وتعامله مع هذه الأحداث وجدنا أنه استطاع أن يحافظ على وحدة الأمة وتماسكها، ويخمد نارالفتنة في مهدها معتمدا في ذلك على:

1–عدم الميل إلى طرف دون آخر وعدم التركيز على الخطأ والمتسبب فيه.

2– تجنب تأجيج نار الفتنة ولو بتطبيق العقوبة العادلة على المتسبب فيها ما دام في الناس من سيتأثر بذلك.

3–تجديد شعور الإيمان والولاء لله ورسوله ﷺ والتذكير به.

على أن عاملا مهما جدا قد ساهم في هذا النجاح الباهر الذي حققه عليه الصلاة والسلام وهو تربيته لهذه النوعية الفذة من الناس الذين لا يزعم أحد أنهم تخلصوا من نوازعهم البشرية فأضحوا من الملائكة، ولكن عمق الإيمان ورسوخه في قلوبهم كان يجعلهم يرجعون إلى الحق في النهاية ويجددون الولاء له ولو كانت أنفسهم كارهة.

ومن عبقرية النبي ﷺ أنه استطاع أن يستغل هذه العصبية في تقريب جحافل من الناس من الإسلام، كانت تدين بالولاء لبعض من ساداتهم من المؤلفة قلوبهم، فكان النبي ﷺ يعطيهم من الدنيا ما يدفع عداوتهم للمسلمين ويمنعهم من أن يحولوا بين قومهم وبين النظر في الإسلام ودلائله والدخول فيه كما أعطى بعض المؤلفة قلوبهم يوم حنين مالا كثيرا ولم يعط بعض فقراء المهاجرين والأنصار ثقة منه بدينهم وولائهم وهوان الدنيا عندهم.[xxiv]

تعامل الصحابة رضوان الله عليهم مع العصبيات بعد وفاة النبي ﷺ:

إذا تأملنا ما حدث بعد وفاة النبي ﷺ وجدنا أن الفترة الحرجة التي تبرز فيها العصبيات وتأثيرها هي مرحلة الانتقال من بيعة إلى بيعة ، وأول ذلك ما حدث بعد وفاة النبي ﷺ. غير أننا يجب أن نميز بين فترتين:

- الفترة الأولى: كان فيها الأصحاب الذين تربوا على يد رسول الله ﷺ عمود الرعية وقوام بنيانها ورؤساءها المتبوعين وتمتد إلى منتصف خلافة الخليفة الراشد المقتول ظلما عثمان ذي النورين رضي الله عنه.
- والفترة الثانية: هي التي توسعت فيها رقعة الإسلام،وقضى فيها على ملك كسرى، وظهور دولة الإسلام قوية يهابها أعداءها.. مما أدى إلى دخول كثير من أعداء الإسلام فيه ظاهرا وتربصهم بأهله من الداخل ومحاولتهم نشر الشقاق والفتن، بالإضافة إلى جحافل كثيرة ممن دخلوا في الإسلام دون أن يتخلصوا تماما من تأثير دياناتهم وفلسفاتهم وخلفياتهم السابقة له مع كثير من المؤلفة قلوبهم ممن ردتهم سريعة، وانحيازهم لكل دعوة باطلة قريب، وهي التي تلت الفترة السابقة.

الفترة الأولى: كان بروز العصبية في هذه الفترة بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة واجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة لتعيين خليفة له منهم.

وبعيدا عن كل ما قيل في هذا الحدث على ألسنة الكارهين للإسلام على اختلاف طوائفهم وعلى رأسهم مبغضو رسول الله ﷺ وأصحابه، فقد كان تصرف الأنصار هذا طبيعيا ومنطقيا، فهم الذين آووا ونصروا، وعلى أرضهم وتحت حماية سيوفهم قامت دولة الإسلام، ولئن كان فضل النبي ﷺ عليهم وعلى كل أحد بالنبوة، فهم الأحق بخلافته بعده، وهم أهل الدار والقوة. غير أن الأنصار رضوان الله عليهم كانوا قد أسقطوا من حسابهم شيئا واحدا، وهو عهد النبي ﷺ بأن تكون الخلافة في قريش، وهو شيء

سرعان ما رجعوا إليه بتذكير من الصاحبين أبي بكر وعمر وما أحد منهما يريدها لنفسه. وقد تم الأمر في سلاسة وسهولة تحت حراسة هذا الإيمان الذي سقاه النبي ﷺ والذي يتفوق على كل شيء في هذه الحياة. بل ولعل عهد رسول الله ﷺ كان وراءه أن قريشا أكبر العصبات وأم القرى ويسهل انقياد الناس لها وكثير من أهلها لا ينقاد لغيره، وهكءا بايعوا أبا بكر ﷺ ثم بايعه من وراءهم.

ولكن الأمر الأخطر كان ارتداد العرب الذين بايعوا على الإسلام والطاعة، وانقسامهم بين متبع لمدع للنبوة يرون فيه كذابهم الذي هو أحب إليهم من صادق مضر، وبين عائد للجاهلية، وبين مانع للزكاة مجتزئ للإسلام، وهؤلاء لم يردهم إلى البيعة والعهد إلا السيف، واتفقت على ذلك أمة الإسلام كلها واجتمعت عليه.

الفترة الثانية: وفي هذه الفترة تحولت مكائد أعداء الإسلام إلى مثل الاستراتيجية التي كان يتبعها ابن سلول وشأس بن قيس وأمثالهما في حياة رسول الله ﷺ، ولكن الرعية في هذه المرة لم تكن على مستوى المهاجرين والأنصار الذين ﷺ وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

وقد نجحت هذه المكائد في إثارة "تذمر بعض أهل الأمصار من ولاة [عثمان ﷺ] بتحريض من ابن سبأ، فاجتمع المنافقون وحاصروا دار الخليفة، وبعد مناقشات معه تجرءوا عليه واقتحموا داره وقتلوه وهو شيخ في الثمانين، وكان صائماً يقرأ القرآن حين مقتله وذلك سنة ٣٦ هـ مما عرف بالفتنة، وجرَّ مقتله إلى سلسلة أخرى من الفتن التي عصفت بوحدة المسلمين"[xxv].

كان هذا الاختراق مقدمة لفتنة شقت صف الأمة، وحاول علي ﷺ الحد من آثارها "وقداجتمعأهلالمدينةعلىبيعتهرغمأنهأظهرعدمرغبتهفيذلكثموافقمنعاًللفتن.معأنهيعلمأنهأصبحأولىالناسبالخلاف ةوأحقهمبها"[xxvi]، لكن الأمر لم يجتمع له لأسباب كثيرة ليس هذا مقام ذكرها ويمثل الانحياز إلى العصبة جزءا منها.

وقد شكل قتلة عثمان "الذين كان يغلب عليهم إظهار القول الحسن، والقراءة الجيدة للقرآن، والصلاة الحسنة، ... تمهيداً لظهور حركة الخوارج التي كانوا نواتها. وقد ظهرت جلافتهم عندما قتلوا الخليفة، ولم يراعوا حرمته ولا حرمة المدينة ولا الشهر الحرام"[xxvii] وانتهى بهم الأمر إلى قتل علي ﷺ أيضا.

ولم يختلف الصحابة رضوان الله عليهم في قتال الخوارج لأنهم خرجوا على الأمة المجتمعة بخلاف أهل التأويل، ووصفهم النبي ﷺ وصفا لم يتردد الناس في معرفتهم به وأمر بقتالهم [xxviii] وقد حرصوا مع ذلك على ألا يعاملوهم معاملة الكفار وعلى رأسهم علي ﷺ الذي "أظهر قدرة فائقة على تعبئة الجيوش وقيادة الناس وتوضيح أحكام الشرع في الحروب الداخلية بين المسلمين ومنها الكف عن المدبر والإحسان إلى الأسير وإطلاقه بعد انتهاء المعركة أو أخذ العهد عليه أن لا يعود للقتال، وعدم قسمة أموالهم واعتبارها غنيمة سوى السلاح والكراع الذي حملوه في الحرب، وعدم سبي النساء والذراري، وعدم حرمان المخالفين من حقهم في الفيء أو الصلاة في المساجد، وعدم بدئهم بالقتال" [xxix].

وقد انتهى الخلاف باجتماع المسلمين على معاوية ﷺ بفضل تنازل ابن بنت رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة الحسن بن علي رضي الله عنهما لفضيلة له أخبر بها النبي عليه الصلاة والسلام وكانت واحدة من دلائل نبوته، قال ابن كثير:" لما مات علي قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين؛ لأنه لم يبق له عندهم منازع، فعند ذلك أقام أهل العراق الحسن بن علي ﷺ، ليمانعوا به أهل الشام، فلم يتم لهم ما أرادوه وما حاولوه، وإنما كان خذلانهم من قبل تدبيرهم السيئ وآرائهم المختلفة المخالفة لأمرائهم، ولو كانوا يعلمون لعظموا ما أنعم الله به عليهم من مبايعتهم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيد المسلمين، وأحد علماء الصحابة وحلمائهم وذوى آرائهم. والدليل على أنه أحد الخلفاء الراشدين الحديث الذي أوردناه في دلائل النبوة من طرق عن سفينة مولى رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكا» ". وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي، ﷺ، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ"[xxx].

وقد هدى الله خامس الخلفاء الراشدين وسيد شباب أهل الجنة الحسن بن علي رضي الله عنهما لرأي جمع به كلمة المسلمين بعد تفرق، وأغلق به بابا خطيرا من مكائد المنافقين.

ثم إن معاوية ﷺ أخذ البيعة لابنه في حياته، ولعله نظر إلى المصلحة الراجحة يومها في تجنيب المسلمين الهزات والزلازل العنيفة التي ينفذ منها المنافقون والأعداء عند الانتقال من بيعة لأخرى.

وكان في فعل الأصحاب رضوان الله عليهم أمران:

- أولهما: محاولة السعي في الإصلاح عند وقوع النزاع بين طائفتين من الأمة مالت كل واحدة منهما إلى رأي على سبيل التأول كما حدث يوم السقيفة ويوم صفين .
- والثاني: الاجتماع على قتال من خرج على الأمة أو ارتد عن الإسلام حتى يرجع إلى الحق، مع عدم معاملته معاملة الكافر والكف عنه إذا رجع إلى الحق.

الخاتمة:

وختاما فقد خلصت هذه الورقة إلى جملة من النتائج:

1. طاعة أولي الأمر من المسلمين ممن يجتمع بهم أمر الأمة ويدفع التنازع وتصان الحقوق في المعروف واجبة بنص القرآن والسنة. والبيعة تزيد عقد الطاعة توثيقا، وهذه الطاعة في حقيقتها طاعة لله ورسوله ﷺ وشاغل الوظيفة يطيع المسلمون فيه ربهم لا شخصه. والغرض من هذه الطاعة تحقيق وحدة الأمة والجماعة، والذي يجمع الأمة ويوحدها هو ما تجتمع عليه دوما من طاعة الله ورسوله ﷺ والاعتصام بحبله، لذلك فطاعة الأمراء مرهونة بكونها في غير معصية.
2. يتجلى البعد الديني في البيعة في الإسلام في الولاء لله ورسوله ﷺ وإقامة شرائعه وحدوده ومعاهدة من يقود الأمة لتحقيق ذلك والاجتماع عليه ومناصرته ومناصحته وطاعته في المعروف واعتبار ذلك طاعة لله ولرسوله ﷺ واعتبار نقيضه معصية لله ولرسوله ﷺ.
3. قالت الشيعة :إن الإمامة ليست من مصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبي إغفاله وعليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما، ولما عجز الشيعة عن إثبات عقائدهم من القرآن، حاولوا تأول ظواهره لحملها على عقيدتهم، ثم لم يكتفوا بذاك حتى قالوا بتحريف القرآن لعدم وجود نص صريح فيه على عقيدتهم.
4. تصنع عقيدة الإسلام مسلما ملتزما وقافا عند حدود الله راعيا للمواثيق والعهود، خاصة إن تعلق الأمر بعقد خطير كعقد البيعة، إلا أن الواقع شيء آخر، خاصة عند فساد الناس وانتشار الجهل والأهواء بينهم وغلبة حظوظ النفس ووساوس شياطين الإنس والجن ومكائدهم. ولذلك يحتاج إلى من يحسن سياسة أمور الناس وحملهم على الحق.
5. أهم مؤثر في ولاء الناس للحاكم هو العصبية، وقد مثلت العصبية عاملا داعما لوحدة الأمم التي أحسنت استغلالها كما مثلت أيضا عامل هدم للأمة والدولة حين تؤدي إلى ضرب فكرة الولاء للإسلام وللنبي عليه الصلاه والسلام.

6. كان النبي ﷺ كان في حماية عصبته وقومه وأقاربه من بني هاشم، و لم يفارقهم إلا في عهد عصبة أخرىكانت تجمعها رابطة القبيلة والقرابة، وكانوا يأتمرون بأمر كبرائهم وسادتهم، ودخول النبي ﷺ في عهدهم كدخول أي واحد منهم فيه رغم أنه لم يصبح بعد إمامهم وأميرهم وقائدهم، وهذا يكشف عن بعد آخر للبيعة وهي أنها وإن انعقدت للإمام فإنها في الحقيقة عهد لكل فرد في الأمة، وكل واحد من الجماعة داخل فيها لأنها تجعل الجماعة كلها حامية له.
7. أصبح النبي ﷺ بعد أن هاجر إمام هذه الجماعة، وقد كانت مبايعتهم له العلاج الذي قضى على دهر طويل من التنازع والقتال والتنافس بين الأوس والخزرج، كانت وراءه العصبية والحمية. ومن هنا برز معطى جديد في البيعة التي تقيم جماعة المسلمين وأمتهم، وهي الولاء لله ورسوله ﷺ الذي يغلب الحمية والتعصب للقبيلة والطائفة.
8. بين النبي ﷺ في كلمات معدودات جميع الأسباب التي تؤدي إلى وهن الأمة وتفرقها وانحلال روابط الولاء والنصرة فيها، وهي:الخروج عن النظام العام الذي تمثله الطاعة في المعروف –، واستبدال الولاء لله ورسوله ﷺ بالولاء للعصبة، ونشر الظلم وخيانة العهود والخروج على الأمة.ومع ذلك فإن النبي ﷺ لم يذم هذه العصبية حين لا تعارض الحق ولا تقف في طريقه.
9. لم يلغ الإسلام العصبية، ولم يدر ظهره لها كفطرة إنسانية، ولم يحاول دفنها تحت رماد من الخداع لتشتعل عند أول نزاع، ولكنه هذبها وجعلها خادمة للولاء لله ورسوله ﷺ.
10. سعى المتربصون بهذه الأمة، وعلى رأسهم المنافقون لتمزيقها وإثارة الفتنة والشقاق بين أفرادها ومكوناتها بالدعوة إلى العصبية الجاهلية، ولحكمة ما شاء الله سبحانه وتعالى ألا يسلم من ذلك عصر النبوة الذي وقعت فيه جملة من الحوادث خلد القرآن الكريم بعضها لتكون درسا يتلوه المسلمون إلى يوم القيامة، وليستفيدوا من سنة النبي ﷺ في التعامل مع مثل هذه الحوادث. وقد شملت هذه الحوادث محاولة إثارة الشقاق بين المهاجرين والأنصار تارة، وبين الأنصار أنفسهم تارة أخرى.
11. استطاع أن يحافظ على وحدة الأمة وتماسكها، ويخمد نار الفتنة في مهدها معتمدا في ذلك علىعدم الميل إلى طرف دون آخر وعدم التركيز على الخطأ والمتسبب فيه، وتجنب تأجيج نار الفتنة ولو بتطبيق العقوبة العادلة على المتسبب فيها ما دام في الناس من سيتأثر بذلك.وتجديد شعور الإيمان والولاء لله ورسوله ﷺ والتذكير به.على أن عاملا مهما جدا قد ساهم في هذا النجاح الباهر الذي حققه عليه الصلاة والسلام وهو تربيته لهذه النوعية الفذة من الناس الذين لا يزعم أحد أنهم تخلصوا من نوازعهم البشرية فأضحوا من الملائكة، ولكن عمق

الإيمان ورسوخه في قلوبهم كان يجعلهم يرجعون إلى الحق في النهاية ويجددون الولاء له ولو كانت أنفسهم كارهة.

12. ومن عبقرية النبي ﷺ أنه استطاع أن يستغل هذه العصبية في تقريب جحافل من الناس من الإسلام، كانت تدين بالولاء لبعض من ساداتهم من المؤلفة قلوبهم، فكان النبي ﷺ يعطيهم من الدنيا ما يدفع عداوتهم للإسلام ويمنعهم من أن يحولوا بين قومهم وبين النظر في الإسلام ودلائله والدخول فيه

13. الفترة الحرجة التي تبرز فيها العصبيات وتأثيرها هي مرحلة الانتقال من بيعة إلى بيعة ، وأول ذلك ما حدث بعد وفاة النبي ﷺ.

14. نميز بين فترتين بعد وفاة النبي ﷺ:الفترة الأولى: كان فيها الأصحاب الذين تربوا على يد رسول الله ﷺ عمود الرعية وقوام بنيانها ورؤساءها المتبوعين وتمتد إلى منتصف خلافة الخليفة الراشد المقتول ظلما عثمان ذي النورين ﷺ.والفترة الثانية: هي التي توسعت فيها رقعة الإسلام، وقضى فيها على ملك كسرى، وظهور دولة الإسلام قوية يهابها أعداءها.. مما أدى إلى دخول كثير من أعداء الإسلام فيه ظاهرا وتربصهم بأهله من الداخل ومحاولتهم نشر الشقاق والفتن، بالإضافة إلى جحافل كثيرة ممن دخلوا في الإسلام دون أن يتخلصوا تماما من تأثير دياناتهم وفلسفاتهم وخلفياتهم السابقة له مع كثير من المؤلفة قلوبهم ممن ردتهم سريعة، وانحيازهم لكل دعوة باطلة قريب، وهي التي تلت الفترة السابقة.

15. كان تصرف الأنصار يوم السقيفة طبيعيا ومنطقيا، فهم الذين آووا ونصروا، وعلى أرضهم وتحت حماية سيوفهم قامت دولة الإسلام، ولئن كان فضل النبي ﷺ عليهم وعلى كل أحد بالنبوة، فهم الأحق بخلافته بعده، وهم أهل الدار والقوة. غير أنهم أسقطوا من حسابهم شيئا واحدا، وهو عهد النبي ﷺ بأن تكون الخلافة في قريش، وهو شيء سرعان ما رجعوا إليه بتذكير من الصاحبين أبي بكر وعمر وما أحد منهما يريدها لنفسه. وقد تم الأمر في سلاسة وسهولة تحت حراسة هذا الإيمان الذي سقاه النبي ﷺ والذي يتفوق على كل شيء في هذه الحياة.

16. يختلف الأنصار عن العرب الذين ارتدوا بعد أن بايعوا على الإسلام والطاعة، وانقسموا بين متبع لمدع للنبوة، وبين عائد للجاهلية، وبين مانع للزكاة مجتزئ للإسلام، وهؤلاء لم يردهم إلى البيعة والعهد إلا السيف، واتفقت على ذلك أمة الإسلام كلها واجتمعت عليه.

17. تحولت مكائد أعداء الإسلام في المرحلة الثانية إلى مثل الاستراتيجية التي كان يتبعها ابن سلول وشأس بن قيس وأمثالهما في حياة رسول الله ﷺ، ولكن الرعية في هذه المرة لم تكن على مستوى المهاجرين والأنصار الذين ﷺ وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

18. لم يختلف الصحابة رضوان الله عليهم في قتال الخوارج لأنهم خرجوا على الأمة المجتمعة بخلاف أهل التأويل، ووصفهم النبي ﷺ وصفا لم يتردد الناس في معرفتهم به وأمر بقتالهم وقد حرصوا مع ذلك على ألا يعاملوهم معاملة الكفار من الكف عن المدبر والإحسان إلى الأسير وإطلاقه بعد انتهاء المعركة أو أخذ العهد عليه أن لا يعود للقتال، وعدم قسمة أموالهم واعتبارها غنيمة سوى السلاح والكراع الذي حملوه في الحرب، وعدم سبي النساء والذراري، وعدم حرمان المخالفين من حقهم في الفيء أو الصلاة في المساجد، وعدم بدئهم بالقتال.

19. امتاز في فعل الأصحاب رضوان الله عليهم بأمرين:أولهما: محاولة السعي في الإصلاح عند وقوع النزاع بين طائفتين من الأمة مالت كل واحدة منهما إلى رأي على سبيل التأول كما حدث يوم السقيفة ويوم صفين .والثاني: الاجتماع على قتال من خرج على الأمة أو ارتد عن الإسلام حتى يرجع إلى الحق، مع عدم معاملته معاملة الكافر والكف عنه إذا رجع إلى الحق.

والحمد لله وصلى الله وسلم بارك على رسولنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين

---

[i] تاريخ ابن خلدون 261/1.

[ii] المفردات في غريب القرآن للراغب ص155.

[iii] ابن تيمية، الخلافة والملك ص9.

[iv] نفسه ص13

[v] صحيح البخاري، كتاب الأحكام، بَاب: قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأولي الأمر منكم} 2611/6 ح6718، وصحيح مسلم، باب وجوب طاعة الأمراء في غير نعصية ح1835

[vi]البخاري، نفسه ح6725، و مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال. وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة 1477/3 ح1849.

[vii]البخاري، نفسه ح6726، أخرجه مسلم في الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية .. ح1840.

[viii]أحمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون ص5

[ix]نفسه ص7.

[x]سيرة ابن هشام 64/2.

[xi]نفسه

[xii]صحيح مسلم، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال. وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة 1476/3 ح1848

[xiii]قال عبد الرحمن بن عوف ﷺ:"لما قدمنا إلى المدينة آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالا، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها، قال: فقال عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟. قال: سوق قينقاع، قال: فغدا إليه عبد الرحمن، فأتى بأقط وسمن، قال: ثم تابع الغدو، فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صفرة، فقال رسول الله ﷺ: (تزوجت). قال: نعم، قال: (ومن). قال: امرأة من الأنصار، قال: (كم سقت). قال: زنة نواة من ذهب، أو نواة من ذهب، فقال له النبي ﷺ: (أولم ولو بشاة)". صحيح البخاري 722/2 ح1943.

[xiv]موضع بناحية اليمن، وقيل: مدينة بالحبشة.

[xv]سيرة ابن هشام 188/2

[xvi]نفسه

[xvii]تفسير الطبري 407/23

[xviii]نفسه، وانظر تفسير ابن كثير 128/8

[xix]المصدران نفسهما

[xx]تفسير الطبري 55/6.

[xxi]سيرة ابن هشام 147/2، وتفسير الطبري 55/6.

[xxii]سيرة ابن هشام 147/2، وتفسير الطبري 55/6.

[xxiii]المصدران نفسهما

[xxiv]من ذلك مثلا ما روى البخاري عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال:" لما كان يوم حنين، آثر النبي ﷺ أناسا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسا من أشراف العرب" صحيح البخاري 1148/3 ح2981.

[xxv]عصر الخلافة الراشدة، أكرم ضياء العمري ص85

[xxvi]نفسه ص92

[xxvii]نفسه ص91

[xxviii]منها ما روى البخاري عن أبي سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:
بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقسم قسما، أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل، فَقَالَ: (وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل). فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه؟ فقال: (دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كما يمرق السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فما يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ – وهو قدحه – فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الفرث والدم، آيتهم رجل أسود، إحدى عضديه مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، ويخرجون عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ). قَالَ أَبُو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به، حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺ الذي نعته. " صحيح البخاري 1321/3.

[xxix] عصر الخلافة، أكرم ضياء العمري ص92

[xxx] البداية والنهاية لابن كثير 134/11